المخططات الأمريكية للهيمنة على المنطقة العربية

أ.د. محمد إبراهيم منصور

دعـنا نـنحى جانباً الدوافع للحرب الأنجلوسكسونية على العراق دون غطاء من الشرعية الدولية ووسط رفض عالمي عارم غير مسبوق.

كانـت دعـاوى الإدارة الأمريكية التي اشتدت وراءها الحملة العسكرية واتخذتها ذرائع لتبرير غزوها هي أنها تخوض حرباً .

- مرة من أجل نزع أسلحة الدمار الشامل العراقية : **النووية والكيماوية والبيولوجية.**
- ومـرةً ضـد نظام متهم بالتعاون مع شبكات الإرهاب الدولي وتنظيم القاعدة.
- ومرةً أخري حرب تحرير للعراق من حكم ديكتاتوري وطاغية مستبد والتبشـير بنشـر الديمقراطـية في ربوع العراق ولذلك صار اسمها الرمـزي " حـرية العراق" وهذه الحرية كما أسماها بوش هي "**هدية الرب لشعب العراق" جاء بها جنوده الأمريكيون من أبناء النور ضد أبناء الظلام .**

وكلهـا دوافـع وراء سواتر تذكرنا بالشعارات التي كانت تستند وراءها الحروب الاستعمارية في القرن التاسع والعشرين من قبيل نشر رسالة الرجل الأبيض في تمدين الأمم الغارقة في بحار الظلمات ومنع الرق .. الخ

دعنا نترك سريعاً هذه الدوافع المعلنة وندخل مباشرة إلى الدوافع الحقيقية غير المعلنة للحرب على العراق، وهي في الواقع الدوافع التي غلبت خيار الحرب على كل خيار آخر.

١- القضاء على التهديد الاستراتيجي الذي يمثله العراق على إسرائيل.

٢- إن إحكام الهيمنة وضمان احتكار القرار الدولي والانفراد بالنفوذ الدولي لا يتحقق إلا بتقييد نمو القوى المنافسة الجديدة وكبح صعودها عن طريق الهيمنة والتحكم في أهم الموارد التي تقيد النمو الاقتصادي في أوروبا والصين واليابان، وبسط الهيمنة على النفط العراقي بكنوزه المغرية ليس فقط لضروريات الحاجة الملحة للاقتصاد الأمريكي الذي دخل مرحلة العطش إلى الطاقة الرخيصة. وإنما لرغبة الولايات المتحدة في استخدام نفط العراق للتحكم في منافسيها المحتملين وربط وصولهم إلى منابعه في الشرق الأوسط برضاء الشريك الأمريكي وشروطه وبذلك تقيد صعودهم السريع نحو قمة النظام الدولي وتؤجل إلى أطول مدى ممكن نحو انتقال النظام الدولي إلى نظام متعدد الأقطاب ينهي استبداد القطب الأمريكي.

٣- إن الولايات المتحدة جاءت إلى العراق مثلما جاءت من قبل في أفغانستان مدفوعة بهوس الرغبة في استرداد هيبة مفقودة بعد ضربة موجعة في الحادي عشر من سبتمبر. كانت بحاجة – حتى قبل أن تتجمع لديها أدلة اتيام دامغة – إلى عدو هزيل مضمون هزيمته، تضمن في حربها معه نصراً سريعاً يعيد إليها ثقة غائبة بالنفس، ويسترد لها هيبة ديست ودفنت تحت أنقاض برجي مبني التجارة العالمي في نيويورك، ووزارة الدفاع في واشنطن.

كان عدوها الأول في أفغانستان نظام طالبان الذي هبط على أفغانستان بمظلة أمريكية لكنه كان يعيش خارج التاريخ وفي كهوفه، وعندما أرادت

الإدارة الأمريكية رأسه فداء لضحاياها في ١١ سبتمبر قطعتها دون أدنى عناء وبـــدون أن يذرف عليه أحد الدموع في داخل أفغانستان أو خارجها وعدوها الثانـــي هو النظام العراقي الذي نجح في بناء قوة إقليمية لا يستهان بها بددها فـــي حربين إقليميتين ضد جيرانه في إيران والكويت، ولكنه هو الآخر صار نظامـــاً آيـــلاً للسقوط بعد أن استنزفه واستنزف العراق معه حصار دام ثلاثة عشر عاماً، وهو نظام معزول إقليمياً وعالمياً محاطاً بجيران لا يأمنون شره، وكانـــت الحـــرب الأمريكـــية ضده – كما يتوقع – مضمونةً نتائجها ولم تكن مغامرة غير محسوبة.

٤- الشـــروع في إعادة تغيير النظام الإقليمي القديم والنظام العالمي القديم وهما نظامان من مخلفات الحرب العالمية الثانية، ولا يعكسان الحقائق الجديدة على الأرض التي أفرزتها الحرب الباردة بعد سقوط حائط برلين وبعد النصر الأمريكـــي فـــي حرب الخليج الثانية التي يبدو أن الولايات المتحدة لم تقطف ثمارها التي تجعلها قوة وحيدة بغير منازع.

إن كولين بـــاول لم يتردد قبل أسابيع من الحرب في الإفصاح عن نية الإدارة الأمريكـــية التـــي تتحكم فيها " المحافظون الجدد " في رسم خريطة جديدة للشرق الأوسط بعد دحر نظام صدام حسين في العراق.

كمـــا أن إصـــرار الولايـــات المتحدة على دخول الحرب بعيداً عن غطاء الشـــرعية الدولـــية وفي تحد سافر للمجتمع الدولى والرأي العام العالمي إنما يعكـــس أن الإدارة الأمريكية ماضية في طريقها لا يثنيها أحد إلى عالم ما بعد الأمـــم المـــتحدة. ثـــم إن اســـتبعادها على لسان باول وغيره من المسئولين الأمريكيـــن – لأى دور للمنظمة الدولية في عراق ما بعد الحرب دليل جديد علـــى تـــبرمها مـــن الأمم المتحدة وضيقها بالقيود التي تقيد احتكارها بسلطة القرار الدولي.

إن نظامـــاً عالمياً لا يطلق للولايات المتحدة يدها في الشأن الدولي لابد أن يتغير. فالأمم المتحدة كتنظيم دولي كانت تعاكس إرادة المنتصرين في الحرب الكونية الثانية، ولكن في الحرب الباردة كان هناك منتصر واحد ليس بحاجة إلـــى منافسين يزاحمونه قيادة النظام الدولي الجديد ناهيك عن استخدامهم حق النقض ضد اندفاعه واستخدامه غير المبرر وغير المنطقي للقوة.

وبالقـــياس نفسه كانت معارضة الولايات المتحدة للمحكمة الجنائية الدولية ورفـــض التصـــديق على اتفاقية كيوتو وغيرها من تنظيمات ترى فيها قيوداً على حقها في الهيمنة.

كمـــا أن نظامـــاً إقليمياً في الشرق الأوسط موروث هو الآخر من الحرب العالمية الثانية لا يضمن مصالح الولايات المتحدة و هيمنتها نظام ينبغي إزاحته أو على الأقل إعادة تشكيله.

وفـــي ظـــنى أن احـــتلال العراق قد فتح الباب أمام إعادة تشكيل الشرق الأوسط بما يعزز المصالح الأمريكية ويضمن وجوداً أمريكياً دائماً في منطقة ظلت محوراً مهماً من محاور السياسة الخارجية الأمريكية لأكثر من قرن من الزمان.

وهكـــذا فـــإن الإطاحـــة بـــنظام صـــدام حسين في بغداد هي مفتاح من السيناريوهات الأمريكية لمنطقة بالغة التعقيد هي منطقة الشرق الأوسط.

وهـــذه الســـيناريوهات تصـــب جميعها لصالح هيمنة الولايات الأمريكية وإسرائيل في آن واحد.

***ولنلق نظرة سريعة على بعض هذه السيناريوهات الأرجح احتمالاً :**

(١) الإتـــيان بحكومـــة عراقية تحت حراب الاحتلال الأمريكي. عن طريقها ســـوف يتحول العراق من حالة المجابهة مع الولايات المتحدة إلى حالة الولاء لهـــا. وســـوف يسبق ذلك حكومة انتقالية عسكرية بقيادة الجنرال **جاى جارنر**

وهـو تاجر سلاح قامت شركته بتزويد الجيش الأمريكي بالمبيدات العسكرية التـي يـتم اسـتخدامها ضد العراق وهو من أصدقاء مجموعة الصقور التى يقودهـا تشينى ورامسفيلد، وهو - وذلك هو الأهم – صديق حميم لإسرائيل ولذلـك فإنه سيكون صاحب موقف مهم بمجرد أن يتولى منصبه الجديد حيث سيكون أول حاكم للعراق يعترف بدولة إسرائيل (الإندبندنت).

وتفكر الإدارة الأمريكية منذ زمن في السيناريو الذي سينفذه جارنر في العـراق وربمـا كـان نفسه السيناريو الذي نفذه سلفه الجنرال ماك آرثر في اليابان عشية هزيمتها في الحرب العالمية الثانية: تقييد نمو العسكرية العراقية وجعل العراق نموذجا يحتذي به جيرانه العرب.

وتضم حكومة جارنر العسكرية المؤقتة ٢٣ شخصية معروفة سواء من رجـال المخابـرات الأمريكية السابقين مثل ولسـى، أو السفراء مثل باربارا بوديـن سـفيرة أمـريكا السابقة في اليمن، وكاردنى الذي خدم في السودان. وسـتمهد هذه الحكومة المؤقتة الطريق لحكومة عراقية معظمها من المقربين من الإدارة الأمريكية وعلى رأسهم تلك الشخصيات المثيرة للجدل والمعروفة بعلاقـتها بالايـباك وإسرائيل والمحافظين الجدد وهو أحمد الجلبى رئيس ما يسمى بالمؤتمر الوطنى العراقي المعارض.

إن سـيناريو (عـراق ما بعد صدام) لا يخلو من صراع أو حروب أهلية وعدم استقرار.

والإدارة الأمريكية تنوى بكل وضوح أن تجعل العراق مستعمرة حتى لـو تشـكلت فيه حكومة عراقية، كما أن الوجود العسكري الأمريكي المكثف سـيبقى لعشـرة أعوام أو يزيد وهذا هو السبب الحقيقي لرفض أمريكا تولى الأمم المتحدة مسئولية الإدارة الانتقالية بعد الحرب.

(٢) إن هـذا السـيناريو العراقـي إذا ما تحتم قد يؤدى إلى قيام نظام إقليمي فرعي جديد في المنطقة يضم تركيا وإسرائيل وعراق ما بعد صدام، وفي ظل هـذا الـنظام الإقليمـي الفرعـي سوف تكون لإسرائيل اليد العليا في تقدير الترتيبات الجديدة للشرق الأوسط.

وقـد تجـد الولايات المتحدة في (عراق ما بعد صدام) حلاً مقبولاً لمعضـلات الصـراع العربـي الاسرائيلي فحق عودة اللاجئين يعالج بهجرة فلسطينية كثيفة إلى العراق وتحقيق طموحات **شارون واليمين الإسرائيلي** في مـزيد مـن التوسـع يعالج هو الآخر بهجرة كثيفة إلى العراق. ثم لا يستبعد العودة إلى النظام الملكي الهاشمى إلى العراق بما يوسع دائرة المحور العراقي الأمريكـي الإسرائيلي ويمهد لخريطة جديدة للشرق الأوسط يكون مبررها – طبقاً لزعم **بوش** – ملاحقة الإرهاب.

(٣) وعلى مرمى البصر تبدو منطقة الخليج والجزيرة العربية على موعد مع سـيناريو جديـد فالمنطقة ستكون ما بعد الحرب على العراق ساحة لتغيرات راديكالـية أكثر عمقاً. ستنال هذه التغيرات الواقعين السياسي والثقافي تحت سـتار الديموقراطية وحقوق الإنسان. كما سيشمل التغيير إعادة تشكيل البنية الأساسية للتنظيمات الدينية ومناهج التعليم وأجهزة الإعلام، ويمكننا القول بأن ضرورات هذا التغيير تنبع من قناعتين أمريكيتين :

الأولـى : قناعة لدى الخبراء الأمريكيين بأن بلادهم قادرة على أن تفعل ما تشاء في منطقة الخليج في ظل غياب كامل لأي قيد دولي أو إقليمي يمكن أن يقيد حركاتها.

والثانـية : أن هذه التغييرات باتت بعد أحداث ١١ سبتمبر تفرضها متطلبات الأمن الداخلي الأمريكي والهيمنة الخارجية للإمبراطورية الأمريكية.

(٤) وأخـــيراً فـــإن المـــنطقة بعد الحرب العراقية وسقوط نظام صدام حسين ســـتكون مفـــتوحة لأســـوأ من ذلك من احتمالات وأكثر هذه الاحتمالات هو العبـــث بجغرافيـــتها السياسية وتبنى المشروع الصهيونى الخطير القائم على تفتيت المنطقة وإعادة تركيبها على أسس قبلية وإثنية وعشائرية، على حساب الرابطة الوطنية بحيث تتبوأ إسرائيل مركز الزعامة بين الأقليات التي ستنتشر في المنطقة.

إن مشـــاهد الـــتحالف والتنسيق بين قوات البشمرجة الكردية والقوات الأمريكـــية فـــي شمال العراق هي رسالة من طرف خفى لكل الأقليات على امتداد الوطن العربي أن بإمكانهم أن يجدوا في الولايات المتحدة حليفاً يتكأون عليه لتحرير مطالبهم القوية والثنائية.

هـــذه هـــي السيناريوهات التي صارت قريبة من مرمى البصر وهذا بعض ما يكاد لنا..

" اللهم قد بلغت .. اللهم فاشهد "